# وهم الإلحاد

أ.د. عمرو شريف

تقديم

أ. د. محمد عمارة

هدية المحرم ١٤٣٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

# تمهيد عن
# الإلحاد بين الغرب والإسلام

بقلم: أ.د. محمد عمارة

الإلحاد: ظاهرة غربية، استقطبت قطاعًا من الفلاسفة والمفكرين الغربيين، وشرائح من الجماهير، منذ الجاهلية اليونانية وحتى العصر الذى نعيش فيه.. ويعود دارسو الفلسفة القديمة بظاهرة الإلحاد إلى الفيلسوف اليونانى (ديموقريطس الأبديري) (حوالى ٤٦٠- ٣٧٠ ق.م) الذى أرجع تولد العوالم وموتها إلى الضرورة، دون أن يخلقها إله.. ولقد وصف (كارل ماركس) (١٨١٨- ١٨٨٣م) ديموقريطس بأنه: (أول عقل موسوعى بين اليونانيين).. وقال عنه (لينين) (١٨٧٠- ١٩٢٤م): (إنه ألمع دعاة المادية فى العالم القديم) (١)

وعبر تطور الحضارة الغربية أصبح الإلحاد مذهبا فلسفيا، وبلغ ذروته فى الماركسية- بماديتها الجدلية والتاريخية التى هيمنت على أحزاب وحكومات ومجتمعات مثلت أكبر ظواهر الإلحاد فى التاريخ الإنساني، حتى جاء سقوطها المدوى أوائل العقد الأخير من القرن العشرين.

ورغم سقوط الماركسية، فلقد ظلت ظاهرة الإلحاد ملحوظة، بل ومتزايدة فى المجتمعات الغربية، بسبب سيادة الفلسفة الوضعية المادية، وبسبب العلمانية التى نزعت القداسة عن

(١) (الموسوعة الفلسفية) وضع لجنة من العلماء السوفياتيين بإشراف: م. روزنتال. و. ب. يودين، ترجمة سمير كرم، طبعة دار الطليعة، بيروت سنة ١٩٧٤ م.

المقدسات.. فالذين يؤمنون بوجود إله لهذا الكون- فى أوروبا- حتى وإن لم يعبدوه- لا تتجاوز نسبتهم ١٤٪ من الأوروبيين! .. وفى انجلترا - حيث الملكة هى رئيسة الكنيسة- قفزت نسبة الملحدين المعلنين إلى ٢٥٪ من السكان!- بعد أن كانت ١٤,٨٪ منذ سنوات! (٢).

وعلى العكس من ذلك لم يكن الإلحاد ظاهرة فى تاريخ الحضارة الإسلامية، بل لا نلمح له وجودا حقيقيا.. قد نجد شخصيات قلقة إزاء الإيمان الديني.. وأغلب هذا القلق إنما كان بمعايير المذاهب التى تقف عند ظواهر النصوص الدينية، والتى تنفر من التأويل.. أما إذا عرض هذا القلق على مذاهب التأويل التى اتسعت آفاقها فى الفلسفة الإسلامية، وعلى مذاهب الإسلاميين التى جعلت (الشك المنهجي) السبيل إلى اليقين فلن نجد لهذا القلق ولا لهذه الشكوك أثرا يربط بينها وبين حقيقة الإلحاد، الذى لا يؤمن أصحابه إلا بالمادة مصدرا للمعرفة، ولا يعتمدون سوى الحواس سبيلا لتحصيل هذه المعرفة (٣)

لقد كان العقل اليونانى عقلا تأمليا نظريا، ونادرا ما اعتمد التجربة لاختبار صدق الأقيسة والنظريات؛ لأن التجربة- عند اليونان- كانت محتقرة، باعتبارها عملا يدويا لا يحترفه سوى العبيد!

وجاء العقل المسيحى الغربى عقلا خرافيا، يحصر كل المعارف والعلوم فى اللاهوت، ويخاصم التجربة؛ لأن العالم- موضوع التجارب- دنس، إذ مملكة- المسيح ليست فى هذا

(٢) (الأهرام) عدد ٢٠١٣/٥/٢٠م.

(٣) د. محمد عمارة (قراءة النص الدينى بين التأويل الغربى والتأويل الإسلامي) طبعة دار السلام، القاهرة سنة ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢ م.

العالم الدنس، وإنما هى فى السماء!.. ولذلك أحالت الكنيسة كل العلماء الذين اشتغلوا بالتجارب فى هذا العالم إلى محاكم التفتيش! (٤)

وعلى العكس من ذلك التاريخ الغربي، الذى ضيّق على العقل وعلى العلم، فوسع الأبواب التى تفضى إلى الزندقة والإلحاد كان تاريخ الإسلام وحضارته مع العقل والعقلانية والمعارف والعلوم والمنهج التجريبى والعلوم التجريبية.. لقد جاءت معجزة الإسلام عقلية، تستنفر العقل كى يتعقل ويتدبر ويتفكر ويتذكر.. بل لينظر ويشك كى يصل إلى اليقين.. على حين كانت معجزات النبوات السابقة مادية، تدهش العقل فتشله عن التفكير!

وفوق شيوع الاستدلال العقلى والمنطقي، فى القرآن، على الحقائق والفلسفات جاء الحديث عن العقل.. كفعل للضبط العقلي- فى تسع وأربعين آية.. فإذا أضيفت إليها الآيات التى تتحدث- باللفظ- عن أدوات التعقل- القلب.. واللب.. والنهي... والفقه.. والتدبر.. والاعتبار.. والحكمة.. إلخ.. إلخ.. قاربت الثلثمائة آية فى القرآن الكريم.

ومع شهرة المقابلة- بل والتناقض- بين العقل والنقل فى التراث الغربي، فإن المقابل للعقل- فى تراثنا العربى والإسلامي- هو الجنون!

وعلى حين كان الضيق الغربى بساحة العقل فى عوالم الأفكار، وبالفروض وبالشكوك المنهجية قيودا وأغلالا دفعت قطاعات من العقل الفلسفى الغربى إلى الزندقة والإلحاد.. كانت الأبواب الإسلامية مشرعة أمام العقل كى ينظر فى الخلق والواقع

(٤) د. محمد عمارة (الإسلام فى عيون غربية) ص ٣٢٩ - ٣٥٨، طبعة دار الشروق، القاهرة سنة ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥م.

والمسيرة والمصير دونما قيود.. حتى قال بعض علماء الإسلام: (إن أول شرط للمعرفة هو الشك).. وقال آخرون: (إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك).. وأعلن البعض: (إن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر ففى العمى والضلال)!

ولقد تحول هذا الشك المنهجي- فى التراث الإسلامي- إلى (علم) من العلوم التى يجب تعلّمها، لأنه هو الطريق إلى تحصيل اليقين الذى تطمئن به القلوب.. وعبّر الجاحظ (١٦٣- ٢٥٥هـ/٧٨٠- ٨٦٩م) عن ذلك فقال لقارئه:

(فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له.. وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلّما، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه، فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك) (٥)

وبهذا الأفق الإسلامى المتميز- بل والفريد- تم استيعاب العقلانية بكل تجلياتها فى أحضان الإيمان الإسلامي، فانعدمت- أو كادت- القيود والضرورات الملجئة إلى الإلحاد.

وعلى حين أغلق العقل المسيحى الغربى أبواب المنهج التجريبي، وحرم على العلماء الاشتغال بالعلوم التجريبية التى اعتبرها اشتغالا بالدنس- جاءت الرؤية الإسلامية للكون، لتقرر أن العالم ليس دنسا، وإنما هو خلق الله، يسبح بحمده حتى وإن لم نفقه نحن لغة تسبيحه، ومن ثم فهو- بمكوناته وطاقاته

(٥) الجاحظ (كتاب الحيوان) ج ٦، ص ٣٥، ٣٧ تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، طبعة القاهرة - الثانية، (والحديث هنا عن الشك المنهجي) وليس عن (الشك العبثي) الذى يناقض الفطرة ويشكك فى البدهيات.

وإمكاناته- مسخر للإنسان فى القيام برسالة العمران . . ولذلك فإن فقه هذا العالم، واكتشاف أسراره- بالتجريب والعلوم التجريبية- هو عبادة، تجعل علماءها الأكثر خشية لله، حتى لقد جاء الحديث القرآنى عن العلماء الذين هم الأكثر خشـية لله فى سياق الحديث عـن العلوم الكونية الطبيعية - وليس العلوم النظرية - فى سـياق الحديث عن علوم: الماء . . والسماء . . والنبات . . والجيولوجيا . . والإنسان . . والحيوان . . والحشرات . . إلخ . . إلخ :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

(فاطر: ٢٧، ٢٨).

فبينمـا كان التجريـب فـى الطبيعـة وعلومهـا- فـى الغـرب المسـيحي- هرطقة يفر أصحابها مـن محاكم التفتيش ومحارقها إلـى الإلحـاد . . كان التجريب- فـى الحضارة الإسـلامية- عبادة يتقـرب بهـا أصحابهـا إلـى الله . . كانـت (علمـا لأشـراف أهل الحكمة، يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلَّة والكهول العلية، حتى ليختارون النظر فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، وحتـى يزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد) ! - على حد تعبير الجاحظ (٦)

وعلـى حين كان الوقـوف بمصادر المعرفـة- عند الملاحدة-

(٦) المصدر السابق، ج١، ص ٢١٦، ٢١٧.

محصورا فى المادة.. وبسبل المعرفة عند الحواس.. فلقد استوعبت نظرية المعرفة الإسلامية- فى مصادر المعرفة- عالم الغيب وعالم الشهادة.. كتاب الله المنظور وآياته المبثوثة فى الأنفس والآفاق، وكذلك كتابه المسطور ونبأ السماء العظيم.. كما استوعبت- فى سبل المعرفة وأدواتها- الهدايات الأربع: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. فالعقل يضيف ويصحح للحواس.. والنقل يضيف أنباء عالم الغيب التى لا يستقل العقل بإدراك كنهها.. والوجدان يضيف إلى حسابات العقل ما يرطبها، كما تضبط حسابات العقول خطرات القلوب وإلهاماتها..

وهكذا تستوعب نظرية المعرفة الإسلامية كل مستويات النظر.. كما يستوعب الخطاب القرآنى كل مستويات المخاطبين:

١- أهل الحكمة والبرهان.

٢- وأهل الموعظة من جمهور المخاطبين وعامتهم.

٣- وأهل الجدل الذين يقفون بين الخاصة وبين الجمهور..

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل: ١٢٥)

فلم تقم- فى هذا الخطاب الإسلامي- التناقضات بين مستويات الخطاب، ولا بين مستويات المخاطبين (٧)

(٧) د. محمد عمارة (مقام العقل فى الإسلام)، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

ولهذه الفروق الجوهرية بين الإسلام وبين فلسفة اليونان ولا هوت المسيحية الغربية.. ومن ثم بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية اختلف أمر الإلحاد بينهما.. فكان الإلحاد وكانت الفلسفة المادية- فى التاريخ الغربي- ظاهرة حاضرة وملحوظة- إلى جانب الفلسفة الإلهية والمثالية دائما وأبدا.. بينما خلا تاريخ الإسلام الفلسفى والفكرى والحضارى من ظاهرة الإلحاد، ولم يعرف سوى بعض الشخصيات القلقة، والشكوك التى ضاق بها الذين خاصموا التأويل ووقفوا عند ظواهر النصوص التى جاءت فى المتشابهات، فلم يتم توظيفها- بالشك المنهجي- لتكون سبيلا لليقين الذى تطمئن به القلوب.

***

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد بروز قرن الزندقة عن طريق الشعوبية الفارسية، التى أرادت الانتقام من الإسلام الذى طوى صفحة كسرويتها وذلك بإشاعة الشكوك التى لبست- فى بعض الأحيان- أثواب الخلاعة والمجون.. وهى الموجة التى كسرت شوكتها عقلانية الإسلام التى رفع رايتها أهل العدل والتوحيد.. فإن الغزو الفكرى الغربي، الذى جاء إلى بلادنا- فى العصر الحديث- بركاب الغزوة الغربية الحديثة، قد فتح العديد من الثغرات الفكرية والدينية للانحراف عن منهاج الفكر والحياة الإسلامي.

فلقد كانت الفلسفة المادية الوضعية أداة غربية للانحراف بالعقل المسلم عن العقلانية الإسلامية المؤمنة.. أرادت الوقوف بالمسلم عند العقل والحواس، دون الشرع والشريعة.. ولقد تصدى العقل المسلم لهذا الانحراف- على لسان رفاعة الطهطاوى (١٢١٦-١٢٩٠هـ ١٨٠١-١٨٧٣م) الذى قال عن هذه الفلسفة الوضعية المادية- التى بلورتها النهضة الأوروبية-: (ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب

السماوية) والذى ميز بين ما لدى الغرب من علوم طبيعية للتمدن والمدنية- عمران الواقع- وبين هذه الفلسفة المادية التى أشاعت الإلحاد والكفر بالدين، وصاغ ذلك شعرا قال فيه:

أيوجد مثل باريس ديار
شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح
أما هذا، وحقكم، عجيب!

كما نبه على تميز العقلانية الإسلامية عن العقلانية الغربية.. فعقلانيتنا تتزاوج مع الشرع، بينما يقفون هم عند العقل المجرد عن الشرع.. فقال:

(إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسني.. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة) (٨)

وجاءت مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامية، التى هندس مشروعها الفكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) لتنتقد الطابع المادى الإلحادى للنموذج الحضارى الغربي، ولتتحدث عن هذه المدنية الغربية باعتبارها: (مدنية الملك والسلطان) مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو (الجنيه) عند قوم، و(الليرا) عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شيء من ذلك.. لقد اكتشف أهلها كثيرًا مما يفيد فى راحة الإنسان وتعزيز نعمته، ثم عجزوا عن أن يكتشفوا طبيعة

(٨) الطهطاوى (الأعمال الكاملة) ج ٢، ص ١٦٠، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣م.

الإنسان، ويعرضوها على الإنسان حتى يعرفها فيعود إليها.. لقد عجزوا عن جلاء الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية، وعن صقل النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحي.. لقد عجزوا - مع قوة العلم - عن كشف الطبيعة الإنسانية التى عرّفها الدين إلى أربابها فى كل زمان) (٩).

كما لفت النظر إلى تميز الإسلام بالوسطية الجامعة التى أنقذت أمته وحضارته مما وقع فيه الغرب من المادية، (فلقد ظهر الإسلام) لا روحيًا مجردًا، ولا جسدانيًا جامدًا، بل إنسانيًا وسطا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية.. لقد جاء الإسلام كمالاً للشخص، وألفة للبيت، ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه (١٠).

وضمن الغزو الفكرى الغربى وفد التنصير إلى بلادنا فى ركاب الغزوة الغربية الحديثة.. جاء لاختراق الإسلام، طامعًا فى تنصير كل المسلمين، وطى صفحة الإسلام من الوجود!.. ولقد توسل المنصرون إلى ذلك بوسائل كثيرة منها - عند العجز عن تنصير المسلم - تشكيكه فى إسلامه، ودفعه إلى الزندقة والإلحاد.. ولقد حاكوا فى تعصبهم ضد الإسلام، وتفضيلهم إلحاد المسلم على إيمانه بالدين الذى يصدق بكل الكتب وبجميع النبوات والرسالات، حاكوا يهود المدينة المنورة على عهد النبوة، الذين شهدوا للوثنية القرشية ضد التوحيد الإسلامي، فقالوا لمشركى

(٩) محمد عبده (الأعمال الكاملة) ج ٣، ص ٢٠٥، ٤٩٥، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

(١٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٦٦.

مكة :

- (إن دينكم خير من دين محمد ، وأنتم أولى بالحق منه) !

والذين أشار إليهم القرآن الكريم فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾

(النساء : ٥١)

هكذا وقف المنصرون ليعلنوا بلسان كبيرهم (صموئيل زويمر) (١٨٦٧ - ١٩٥٢ م) : أن تشكيك المسلم فى دينه هو الموقف الأولى إذا لم يكن الانتقال به من الإسلام إلى النصرانية !(١١)

وفى بداية ثلاثينيات القرن العشرين نجح المنصرون فى تنصير أحد أبناء الأسر المصرية بمدينة الإسكندرية ، وهربوا به إلى الخارج ، فاهتز ضمير الأمة لهذا الحدث الجلل والغريب ، حتى أنه قد أحدث تحولاً فى الحياة الفكرية قاد عددًا من رموز الفكر العلمانى إلى الكتابة فى الإسلاميات . . وكان فى مقدمة هؤلاء الكتاب الكبار الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ، ١٨٨٨ - ١٩٥٦م) والأستاذ عباس محمود العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ ، ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م) .

وفى عام ١٩٣٧ م كتب إسماعيل أدهم (١٣٢٩ - ١٣٥٩ هـ ، ١٩١١ - ١٩٤٠ م) رسالة صغيرة فى تحبيذ الإلحاد عنوانها : (لماذا أنا ملحد) . . وكانت ثقافة الرجل ثمرة للفكر المادى

(١١) د. محمد عمارة (الغارة الجديدة على الإسلام)، طبعة نهضة مصر، القاهرة سنة ٢٠٠٦ م.

الماركسى الذى درسه وعاشه وعايشه عدة سنوات فى الإتحاد السوفييتي.. ولقد قامت الردود الإسلامية - العقلانية المستنيرة - بوأد هذه النزعة الإلحادية فى مهدها.. ثم طويت صفحتها بانتحار صاحبها غرقًا عند شاطئ الإسكندرية سنة ١٩٤٠ م.

ومضت الحياة الفكرية بعالم الإسلام دون أن يعرف الإلحاد (كظاهرة)، وإن عرف - كما أشرنا من قبل - بعض الشخصيات القلقة، وبعض الغلو العلمانى الذى يفترى الكذب على شريعة الإسلام والتاريخ الفكرى والحضارى للمسلمين.. كما عرف عالم الإسلام إبان القرن العشرين هوامش للفكر المادى المركسي، تمثلت فى تنظيمات شيوعية لم تكن الدعوة إلى الإلحاد ملحوظة فى أدبياتها، مراعاة منها للإيمان الدينى الذى تدين به الجماهير التى تتوجه إليها هذه الأدبيات.

ولقد ظل الحال كذلك حتى جاءت ثورة الاتصالات المعاصرة التى أزالت الحواجز النسبية بين الثقافات والحضارات، والتى جعلت فيها شبكة المعلومات العالمية من الكون الثقافى والعولمة الفكرية صفحة مفتوحة أمام جميع الناس فى كل القارات والأقطار والحضارات.. فرأينا - ولأول مرة فى تاريخنا - تسلل الإلحاد الغربى إلى نفر من الشباب المسلم، الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومي، ولم تتحصن عقولهم بالوعى الفكرى الإسلامي، ولم تتهذب وجداناتهم بالتربية الإسلامية التى تؤسس لطمأنينة القلوب.. فعلى مواقع (النت) وفى غرف الدردشة، يتساقط نفر من هؤلاء الشباب فى مستنقع الإلحاد، تساقط الغرقى الذين اجتذبتهم أمواج المحيطات، دون أن تكون لهم الدراية - فضلاً عن المهارة - فى التعامل مع أمواج المحيطات وعواصفها وتقلباتها.. ولقد وضح ذلك أكثر ما وضح فى المجتمعات الإسلامية التى يسود فيها خطاب دينى غريب عن العصر، أو

غارق فى الجمود والتقليد..

لذلك.. وقيامًا بالواجب العلمى للعقل الإسلامى فى أداء فرائضه الثلاث:

١- تبليغ الدعوة بالحكمة والبرهان والموعظة الحسنة.

٢- وإقامة الحجة بالحوار والمجادلة بالتى هى أحسن.

٣- وإزالة الشبهات التى يقذف بها دعاة الإلحاد عقول الشباب.

قيامًا بهذه الفرائض تطلعت إلى ساحة الفكر الإسلامى - وخاصة فى مصر - بلد الأزهر الشريف، فكانت الصدمة عندما لم أجد أحداً بين علماء الإسلام قد أولى هذا الحقل، حقل الرد على الماديين ومحاورة الملحدين.. ما يستحق من التخصص والاهتمام، لكن ولحسن الحظ وجدت هذا العالم الفاضل، أستاذ الطب الدكتور عمرو شريف، الذى استوعب تاريخ الإلحاد ودعاوى فلاسفته قديمًا وحديثًا فى الغرب والشرق، والذى أسهم بجهود فكرية مشكورة ومتميزة وممتازة فى هذا الميدان، والذى قام بمحاورة عدد من مشاهير الملحدين العرب، فكسر شوكتهم بالعقلانية العلمية والمنطق الإيماني، فطلبت منه أن يقدم لقراء مجلة الأزهر، التى كانت على مر تاريخها حارسة لعقائد الإسلام وشريعته وحضارة أمته.. والتى سبق لها وأسهمت فى الرد على كتاب إسماعيل أدهم سنة ١٩٣٧م (١٢)، طلبت من الدكتور عمرو شريف أن يقدم للشباب المسلم الحقائق التى تعرى أوهام الإلحاد وأكاذيب الملحدين، فكان هذا الكتاب الذى أقدم بين يديه.

لقد عشت معه، وعايشت أفكاره، وتأملت منطقه وحججه، فوجدته ثمرة ناضجة لعلم غزير، وتجارب غنية، وإخلاص يتميز

(١٢) لقد نشرت مجلة الأزهر - يومئذٍ - دراسة علمية ممتازة لرئيس تحريرها العلامة محمد فريد وجدي، عنوانها: (لماذا هو ملحد)؟.. سنعمل على إعادة نشرها ضمن الجهود التى نبذلها لمحاربة الإلحاد - إن شاء الله..

بـه أصحاب الرسـالات، وغيـرة على الإنسـانية أن تضـل طريق الهداية فتقع فى مستنقع الإلحاد الذى يقطع طريق الأمل أمام أهله فيغرقهم فى بحار اليأس والقنوط.

إنـه كتـاب علمى دقيـق وعميق، ومـع ذلك فهـو واضح، بل وممتع، وجذاب.. ففيه مستويات من الحقائق العلمية، وطبقات من البراهين المنطقية، تجعل لكل قارئ من القراء، الذين تتفاوت مداركهـم العلميـة ومسـتوياتهم الفكريـة، نصيبًـا وحظا يدعم الإيمان ويبدد شبهات الإلحاد.

إن الإلحـاد يفتـرس طمأنينة النفوس البشـرية فـى مجتمعات غربية تتمتع بأعلى مسـتويات المعيشـة والإشـباع للشـهوات، فتشهد - مع ذلك - أعلى مستويات القلق والانتحار!.

بينمـا يضمـن الإيمـان الدينـى طمأنينـة النفـوس فـى أكثـر المجتمعات الإسلامية فقرًا، فلا تجد فيها أثرًا لانتحار الملحدين!!

لذلك كان تبديد أوهام الإلحاد والملحدين سـبيلاً لتحقيق الطمأنينة والسعادة فى هذه الحياة الدنيا.. فضلاً عن النعيم فى يوم الدين.

وتلك هى رسـالة هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القراء، سـائلين المولـى - عز وجل - أن ينفع به، وأن يجزى كاتبه خير الجزاء.. إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب.

❊❊❊

# تقديم:
# الإلحاد فى القرآن الكريم

يرى الكثير من المفسرين أن القرآن الكريم لم يتناول قضية الوجود الإلهى، باعتبار أنها فطرة فى النفس البشرية، لذلك اتجه مباشرة إلى الاستدلال على وحدانية الله تعالى، ونحن نتبنى الرأى الآخر القائل بأن القرآن الكريم - باعتباره خاتم الكتب السماوية - كان طبيعيًا أن يبدأ بإثبات قضية الوجود الإلهى، سواء بتبنيه الفطرة البشرية، أو بالمنطق العقلى، أو بالحث على النظر فى الآفاق وفى الأنفس، ثم يعرج بعد ذلك إلى قضية التوحيد، ثم إلى تناول أشكال الطمس والانحراف المختلفة التى يمكن أن تصيب الفطرة الإنسانية وسلامة العقل، ويطلق القرآن الكريم على هؤلاء اسم «الكافرون»؛ حيث كَفَرَ تعنى غَطَّى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(الكافرون: ١ : ٦).

وهؤلاء الكافرون قد يكونون:

«مدعون» أو «منكرون» أو «مشركون» أو «ضالون»

١- أما المدعون، فهم «مدعو الألوهية»، وقد تناول القرآن الكريم هذا النمط من الانحراف من خلال القصص القرآنى، فيحدثنا عن نمرود إبراهيم وفرعون موسى، وبعد نزول القرآن قابلنا هذا الادعاء عند غلاة الشيعة الذين ألَّهوا الإمام على بن أبى طالب رضى لله عنه، ثم عند البهائيين، وهذا الادعاء هو أشد أشكال الانحراف عن الفطرة السوية.

وهؤلاء تقابلهم فى العصر الحديث المدارس الفكرية المادية التى جعلها المنكرون لله تعالى آلهة يتبعونها، كالداروينية والماركسية.

ويمتد الادعاء ليشمل «ادعاء النبوة»، وكان هذا النمط أكثر شيوعًا بين العرب من ادعاء الألوهية، ويحدثنا القرآن الكريم عن هذين النمطين بقوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

(الأنعام: ٩٣).

٢- يطلق القرآن الكريم على المنكرين لوجود الله عز وجل اسم «الدهرية»، وقال فيهم:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

(الجاثية: ٢٤).

وجاء فى «موسوعة المفاهيم» للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن الدهرية مذهب كل من اعتقد فى قِدَم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخَلق والعناية والبعث والحساب، كما يرون أن الموجب للحياة والموت هى طبائع الأشياء وحركات الأفلاك.

وهؤلاء الدهرية المنكرون للإلوهية هم أقرب الكافرين من الملاحدة المعاصرين، كما يخبرنا القرآن الكريم عما سيدعيه بعض الدهريين بعد أربعة عشر قرنًا عن خلق الكون والإنسان من عدم، فيقول الحق عز وجل:

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾

(الطور: ٣٥).

سبحان الله، ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ هنا تعنى: من غير مادة ومن غير سبب أول، كما تعنى ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أن الشيء يخلق ذاته، وقد ادعى الملاحدة المعاصرون وقوع هاتين الفرضيتين المستحيلتين!.

٣- يحدثنا القرآن الكريم عن طائفة تقر بالإله الخالق للكون، والذى اعتزله بعد أن وضع فيه القوانين التى تسيره، ومن ثم ينكر هؤلاء «القيومية»، أى ينكرون متابعة الإله الخالق للكون بالحفظ والتدبير والرزق، وفى هؤلاء يقول الحق تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

(العنكبوت: ٦١)

٤- يخبرنا القرآن الكريم أن من الكافرين من يقر بالقيومية:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

(العنكبوت: ٦٣)

لكنه ينكر أن يكون الإله قد تواصل مع البشر عن طريق الأنبياء والرسل، أى ينكرون الديانات، وهذه الطائفة (والتى قبلها) تقابل «الربوبيين» المعاصرين.

ويهدف الربوبيون من إنكار الديانات السماوية - فى المقام الأول - إلى إنكار البعث والثواب والعقاب، فعند ذلك لن يكون هناك مبرر للعبادات وللالتزام بأوامر الله عز وجل ونواهيه، وبذلك يُفرغوا الألوهية من كل معنى وقيمة:

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾

(التغابن: ٧)

٥- يأتى بعد «المدعين» و«المنكرين» «المشركون»، والمشرك هو الذى يؤمن بوجود الله، لكنه يعبد معه غيره من أصنام وأوثان ويقدس الأولياء، بزعم أنهم يقربونه لله عز وجل:

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾

(الزمر: ٣)

ومن أشكال الشرك الأخرى التى يكشف القرآن الكريم فسادها أن ينقاد الإنسان لـ«هواه»، فيكون كمن اتخذه شريكا لله تعالى:

﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾

(الفرقان: ٤٣).

٦- و«الضالون» آخر أنماط الكافرين، وهم الذين ضلوا عن الحق بعد أن عرفوه، وهؤلاء موجودون فى جميع الملل والديانات.

ومن الضالين فى أمة المصطفى ﷺ، غلاة التصوف الفلسفى القائلين بوحدة الوجود المطلقة وبالحلول والاتحاد، ظنًا منهم أن فى ذلك كمال التوحيد.

٧- جاء لفظ «يلحد» فى القرآن الكريم على ثلاثة معان:

**الأول:**

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٨٠).

وهذا هو الإلحاد فى أسماء الله تعالى، أى الميل والانحراف بها إلى الباطل، فينسبون إلى الله تعالى العدمية، أو الجبر، أو الحلول والاتحاد، أو .....

**الثانى:**

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ ﴾

(فصلت: ٤٠).

وهو تحريف معنى آيات القرآن الكريم إلى غير مراد الله تعالى منها، فيفسرون مثلاً آيات طلاقة المشيئة الإلهية بأن الإنسان مُجْبَر مُسَيَّر.

**والثالث:**

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(النحل: ١٠٣).

ويلحدون إليه بمعنى ينسبون إليه، والمقصود من الآية أن الكفار ينسبون تعليم محمد ﷺ إلى الكهان، وهؤلاء لسانهم أعجمى غير عربى.

سبحان الله، لم يَدَع القرآن الكريم نمطًا من أنماط الانحراف عن فطرة الألوهية التى ظهرت حتى يومنا هذا إلا واعترضه بالحجة والبرهان، وهذا هو الجدير بخاتم الكتب السماوية.